أ. الشيخ محمد مهدي الآصفي

عضو الهيئة العلمية للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

دراسات ومقالات

النظام الجزائي ضرورة اسلامية

بالعقوبات نستدل على عدالة الله.. وبالعدالة نستدل على ضرورة وجود العقوبات في الدين.

تماماً مثل الانظمة الاجتماعية والحقوقية العادلة فإنها لابد ان تتضمن نطاقاً خاصاً للعقوبات.. ومن دون ذلك لا يمكن تحقيق العدالة في العلاقات الاجتماعية.

فلا يمكن في النظام الكوني القائم على العدالة والحكمة ان لا تضمن نطاقا للعقوبات في الدين، كما لا يمكن ان لا يكون لخالق هذا النظام القيّوم المدبر المهيمن نظام للعقوبات.

عن ابي رفعة، قال: ان أمير المؤمنين صعد المنبر فذكر الله وأثنى عليه، ثم قال: ايها الناس الذنوب ثلاثة، ثم أمسك فقال له حبة العرتي: يا أمير المؤمنين فسّرها لي.

فقال ما ذكرتها إلا وانا اريد ان افسرها، ولكنه عرض لي بُهْر (انقطاع النفس بسبب الاعياء) حال بيني وبين الكلام.

نعم الذنوب ثلاثة، فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه.

قيل يا أمير المؤمنين فبينها لنا.

قال: نعم أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الله فالله أحكم وأكرم ان يعاقب عبده مرتين.

وأما الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض.. ان الله تبارك وتعالى اذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه، فقال وعزتي وجلالي لا يجوز في ظلم ظالم ولو كف بكف.. فيقتص للعباد بعضهم من بعض، حتى لا يبقى لاحد على أحد مظلمة [١].

العقوبات التكوينية في الدنيا والآخرة

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [٢].

أقصد بالعقوبات التكوينية ما يقع في مقابل العقوبات التشريعية وهي العقوبات التي شرعها الاسلام في الدنيا لطائفة من الذنوب والجرائم، وتنظمها ثلاثة عناوين: القصاص، والحدود، والتعزيرات.

ونحن في هذا المقال لا نريد ان نتحدث عن هذا العنوان ، لا إجمالاً ولا تفصيلاً.. ونقصد بهذه الكلمة العقوبات المترتبة على المعاصي في الدنيا والآخرة بصورة تكوينية ، كالابتلاءات التي تصيب الناس في الدنيا من جراء بعض الذنوب، وعذاب الاستدراج الذي يستدرج به الله تعالى عباده في الدنيا،

وكذلك عقوبات الآخرة.

كما ان العقوبات التشريعية من ضرورات الدين، على نحو الإجمال، كذلك العقوبات التكوينية في الدنيا والآخرة من ضرورات الدين ، على نحو الإجمال، والذي ينكرها إجمالا ينكر ضرورة من ضرورات الدين.

أقسام العقوبات

العقوبة ثلاثة اقسام:

١- العقوبات التأديبية والتهذيبية.

٢- عقوبة الاستدراج والمكر.

٣- عقوبة التنكيل.

واليك توضيح هذه العقوبات الثلاثة :

١- عقوبة التأديب والتهذيب

العقوبات التأديبية والتهذيبية متقاربتان ولكنهما تختلفان عن بعضهما بعض الاختلاف.

فإن العقوبات التأديبية هي العقوبات التي تنبه العبد الى خطئه وزلته وتوجهه الى الاستغفار والتوبة.

والعقوبات التهذيبية هي الابتلاءات التي يواجهها العبد في الدنيا او في سكرات الموت عند الاحتضار او في العقوبات التي يلقاها بعد موته..

وهذه الابتلاءات والعقوبات تزيل عنه أوضار الذنوب ورين المعاصي، فتهذبه وتصفيّه لدخول الجنة، فإن الجنة دار السلام، ولايدخلها المؤمنون الا بعد أن يتطهروا ويتخلصوا من كل مالصق بهم في دار الدنيا من اوضار الذنوب.

والقدر المشترك بين هاتين العقوبتين، أنهما من أبواب رحمة الله تعالى بعباده العاصين، فإن العقوبة التأديبية تنبه العبد الى الاقلاع عن الذنب وتوجهه الى الندم والاستغفار والتوبة .

وهذه رحمة من عند الله وفضل منه تعالى بعباده المؤمنين.

والعقوبة التهذيبية تخلص العبد من أوضار الذنوب والمعاصي، ليصلح لدخول الجنة، فإن الجنة لا يدخلها المؤمن الا بعد ان يتطهر ويتخلص من كل ذنوبه ومعاصيه فهما من أبواب رحمة الله تعالى بعباده وفضله عليهم.

وهاتان العقوبتان، في مقابل عقوبة المكر والاستدراج. ففي عقوبة الاستدراج يستدرج الله العبد العاصي من نعمة الى نعمة، فيتقلب في النعم وينسى الاستغفار، فيموت وهو محمّل بالذنوب، معرض عن الإستغفار، وفي عقوبة التأديب ينبه الله العبد الى الخطر المحدق، وضرورة الاقلاع عن الذنب والاسراع الى التوبة ليقلع عن الذنب ويتحرر من أوزاره قبل ان يموت.

والفارق بين العقوبتين ينشأ من الفارق بين الطائفتين من العصاة والمذنبين.

فإن الطائفة الاولى من المذنبين، رغم اقترافهم للذنوب وخروجهم عن دائرة الطاعة له لم يخرجوا عن دائرة الرحمة الالهية الواسعة التي وسعت كل شيء فتشملهم رحمة الله، رغم ما يرتكبون من المعاصي والذنوب، فينبههم الله تعالى بما يلقون من الابتلاءات في الدنيا الى الخطر وضرورة الاسراع الى الاستغفار والتوبة ويذهب الله تعالى بما يبتليهم في الدنيا، وبما يلقونه في سكرات الموت عند الاحتضار وبعده.. يذهب الله تعالى بذلك عنهم أوضار الذنوب، او يخففها عنهم وهو من رحمة الله وفضله.

واما الطائفة الثانية وهم الذين يعاقبهم الله عقوبة المكر والاستدراج، او

عقوبة التنكيل.. فقد أخرجتهم ذنوبهم عن دائرة رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بشيء، فيكلهم الله تعالى الى انفسهم وشهواتهم واهوائهم ويملي لهم بالنعمة بعد النعمة، حتى لا يذكروا ذنوبهم، ولا يندموا على افعالهم، ولا يستغفروا الله، ولا يتخففوا من اوضارها، كما هم يشتهون...

وعليه، حتى اذا أذنب الانسان، يجب عليه ألاّ يقطع حبله عن حبل الله، ويبقى حبله موصولاً بحبل الله، لئلا تخرجه ذنوبه عن دائرة الرحمة، فتشمله رحمة الله، وتعيده الى الله، وترفع عنه اوضار الذنوب والمعاصي، ليدخل اخيراً الى دار السلام.

العقوبات التأديبية

عن سفيان بن سمط قال ابو عبدالله (ع): (إذا أراد الله بعبد خيراً، فأذنب ذنبا، أتبعه بنقمة ، ويذكره الاستغفار، واذا اراد بعبد شراً، فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله عزوجل: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون») [٣].

وعن الراوندي، قال الصادق(ع): (إتقوا الذنوب ، وحذّروها اخوانكم ، فوالله ما العقوبة الى احد أسرع منها اليكم، لانكم لا تؤاخذون بها يوم القيامة) [٤].

عقوبة التهذيب

وهذه العقوبة قد تكون في الدنيا على شكل ابتلاءات تصيب الناس، وتتوالى عليهم في الدنيا لتخفف عنهم الذنوب التي تحملوها كالامراض والمصائب التي تصيب الناس.

فإن لم يخلص العبد فيها من ذنوبه تهجم عليه عند الموت وفي سكرات

الموت عند النزع - اعاذنا الله منها -...

فإن لم يخلص العبد فيها من ذنوبه تدخل عليه قبره، فيعذب فيه ليتخلص من ذنوبه ومعاصيه.

فان لم يتخلص منها رافقه العذاب الى البرزخ.

فإن لم يتخلص منها طال وقوفه عند الحساب حتى يخلص منها.

فإن لم يتخلص منها ادخلته نار جهنم ونعوذ بالله حتى يخلص منها في نار جهنم، ويطهر فيها، ليصلح دخول الجنة.

والروايات في هذا الشأن كثيرة؛

فعن رسول الله(ص) انه قال: اذا مرض المسلم كتب الله له كأحسن ما كان يعمل في صحته، وتساقطت ذنوبه، كما يتساقط ورق الشجر[٥].

وهذه المصائب ابتلاءات تخفف عن المؤمن في الدنيا الذنوب التي ارتكبها في غفلاته وسهوه.

وعن الامام زين العابدين(ع): ما من مؤمن تصيبه رفاهية في دولة الباطل الا أبتلي قبل موته ببدنه او ماله حتى يتوفر حظه في دولة الحق[٦].

وعن أمير المؤمنين(ع): ما من الشيعة عبد يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتى يُبتلى ببلية تمحص بها ذنوبه: إما في مال او في ولد وإما في نفسه حتى يلقى الله عزوجل وماله ذنب وانه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه، فيشدد به عليه عند موته.

وعن ابي محمد العسكري قال: دخل موسى بن جعفر(ع)[٧] على رجل قد غرق في سكرات الموت، وهو لا يجب داعياً، فقالوا يابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف حال صاحبنا.

فقال: الموت هو المصفاة تصفي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون آخر ألم

يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم.

واما صاحبهم هذا فقد نخل (الغربال يزيل النخالة) من الذنوب نخلاً وصفّي من الآثام تصفية، وخلص حتى نقي كما يُنقى الثوب من الوسخ، وصلح لمعاشرتنا اهل البيت في دارنا الى الابد [٨].

قال رجل لامرأته اذهبي الى فاطمة بنت رسول الله(ص) فاسأليها عني: أنا من شيعتكم؟

فقالت: قولي: ان كنت تعمل بما امرناك وتنهى عما زجرناك، فأنت من شيعتنا، وإلا فلا .

فرجعت وأخبرته.

فقال: يا ويلا، ومن ينفك عن الذنوب والخطايا، فإذا أنا خالد في النار.

فرجعت المرأة فقالت لفاطمة(س) ماقال زوجها.

فقالت فاطمة قولي له ليس هكذا. ان شيعتنا من خيار اهل الجنة. وكل محبينا إذا خالفوا اوامرنا ونواهينا ليسوا من شيعتنا، وهو مع ذلك في الجنة بعد ما يطهّرون، ولكن انما يطهرون من ذنوبهم بالبلايا والرزايا، او عرصات القيامة بأنواع شدائدها، او في الطبق الاعلى في جهنم بعذابها.. الى أن يستنقذهم بحبنا منهم، او ننقلهم بحضرتنا[٩].

عن محمد بن مسلم قال قال ابو عبدالله(ع): والله لا يصف عن هذا لامر فتطعمه النار.

قلت: ان فيهم من يفعل ويفعل.

فقال: انه اذا كان كذلك ابتلى الله احدهم في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا ضيق الله عليه في رزقه. فإن كان ذلك كفارة لذنوبه ، وإلا شدد عليه عند الموت، حتى يأتي الله ولا ذنب له ، ثم يدخله الجنة[١٠].

وعن المفضل ، قال: قال أبو عبد الله(ع) يا فضل، إياك والذنوب، وحذرها شعيتنا ، فوالله ماهي الى أحد أسرع منها اليكم، إنّ احدكم لتصيبه المعرّة من السلطان، وماذاك الا بذنوبه، وانه ليحبس عليه الرزق، وما هو الا بذنوبه، وانه ليشدد عليه عند الموت، وماهو الا بذنوبه.

فلما رأى ما قد دخلني قال: اتدري لم ذاك يا مفضل، قال، قلت لا ادري جعلت فداك.

قال: ذاك والله انكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعجلت لكم في الدنيا[١١].

وهذه العقوبة، رغم انها داخلة في دائرة رحمة الله الواسعة إلاّ أنها صعبة عسيرة.

وعن الامام الصادق(ع) عن رسول الله(ص): ان العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مأة عام، وانه لينظر الى ازواجه في الجنة يتنعمن[١٢].

٣- عقوبة الاستدراج والمكر

وهي النحو الثاني من العقوبات الالهية. ظاهرها النعمة، وباطنها النقمة ، بعكس عقوبة التأديب والتهذيب التي كان ظاهرها النقمة وباطنها الرحمة.

في هذه الطائفة من العقوبات يتقلب المجرمون، من عافية ونعمة الى عافية ونعمة. ويمدهم الله تعالى، ويمهلهم ويملي لهم.. وهذا الاملاء والامهال نحو من مكر الله تعالى بالمجرمين، فيغفلوا عن ذكر الله والاستغفار، ويغلبهم الطيش والغرور، حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وانما يكلهم الله تعالى الى انفسهم، ويستدرجهم بالنعم وينسيهم الاستغفار والتوبة، لانهم إختاروا الإعراض عن رحمة الله.. ومن يعرض عن رحمة الله فلا تشمله الرحمة، لا لأنّ الرحمة الالهية تضيق بأحد، فإن رحمة الله لا تضيق

بشيء، والعبد شيء من الاشياء، وإنما لانهم - أي المجرمون - أصروا على الإعراض عن رحمة الله ، والدخول في دائرة مشاقة الله ومحاربته والتمرد عليه.. فيكلهم الله الى انفسهم، كما ارادوا، فلا تصيبهم معرة، او ابتلاء في الدنيا، كما يصيب المؤمنين، وانما يتقلبون في النعمة والعافية، حتى ينقض عليهم الأجل، فيأخذهم الله اخذ عزيز مقتدر.

وهذا هو الاملاء والاستدراج.

ومعنى الإملاء: الامهال؛ فلا يعجل الله بعذابهم كما يعجل بعذاب المؤمنين ليتنبهوا من غفلاتهم، فيمهلهم، ليمعنوا في التمرد والاجرام والافساد.

ومعنى الاستدراج أن يفسح الله لهم الطريق الى المعاصي والذنوب، فيتدرجوا من عصيان الى عصيان ومن اجرام الى إجرام دون ان يعيقهم اليه عائق من ابتلاء او مصيبة، كما يصيب المؤمنين المذنبين وكأنما الله تعالى يستدرجهم الى ما يطلبونه من المعاصي والجرائم استدراجا.

يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٣).

كما يستخدم البوليس طريقة (استدراج المجرمين) لاثبات الجريمة بالجرم المشهود، فيراقبون المجرم عن كثب، في جميع مراحل ارتكاب الجريمة، دون ان ينتبه الى هذه المراقبة ليلقوا عليه القبض، وهو متلبس بالجريمة... وذلك لغرض اثبات الجريمة بالجرم المشهود المحسوس.

ويجري نفس العمل في سنن الله تعالى، ولكن لغاية اخرى، وليس لاثبات الجريمة.. فان جوارحهم تشهد عليهم بما أجرموا يوم القيامة، ولا حاجة الى إستدراجهم لاثبات الجريمة عليهم بالحس والشهود يوم القيامة، وانما يجري استدراج المجرمين في سنن الله لغرض تفعيل مافي نفوسهم ونياتهم من شر او

خبث، ونقصد بالتفعيل المعنى الفلسفي لهذه الكلمة، وهو الخروج من القوة الى الفعلية.

فإن المجرمين يحملون في انفسهم ونياتهم شراً وخبثاً كثيراً، كما يحمل الصالحون في نفوسهم خيراً كثيراً... وكما يتمنى الصالحون ان يوفقهم الله لتفعيل هذا الخير وابرازه وتحقيقه، كذلك يتمنى المجرمون ان يحققوا ما في نفوسهم ونياتهم من شر وخبث ودناءة.

فيفعل الله لكل منهما ما يحبون ويتمنون.

والتفعيل الاول هو الاستدراج.

والتفعيل الثاني هو التوفيق. والتوفيق في مقابل الاستدراج، ومعنى الاستدراج بناء على ذلك هو تفعيل ما يريده ويطلبه المجرمون من إجرام وإفساد.

كما ان التوفيق هو تفعيل ما يطلبه الصالحون من صلاح وخير وإصلاح.

ويتم هذا او ذاك ضمن سنن الله تعالى فإن نواة التفاحة ونواة الشوكة تحملان بالقوة كل مافي التفاحة من نفع وفائدة، وكل ما في الشوكة من اذى وضرر... والله تعالى يفعل هذه وتلك في نظام الخلقة العام.

ولابد في نظام الخلقة العام من التفاحة والشوكة والصحة والمرض والخير والشر معاً.

وفي نفس الانسان الخير والشر، والعدل والظلم، فإذا كان الغالب عليه هو الخير وفّقه الله تعالى للخير، وخلّصه مما في نفسه من شر بما في نفسه من الخير.

واذا كان الشر غالباً أعانه الله على ما في نفسه من شر للتخلص منه، ووفّقه إلى ما في نفسه من خير.

فإذا تمادى الانسان في الشر والضلال وَكَلَهُ الله الى نفسه... عندئذ يتمكن الشر من نفسه ، ويطغى الشر على نفسه ونيته وعمله، وهذا هو موضع الاستدراج في سنن الله تعالى.

فيملي له الله تعالى فيما يريد من ذنب وعصيان، ويمهله ليتمادى في عمله، ولا يبتليه فإن الابتلاء يصد صاحبه عن التمادي في الغي والشر. وحيث ان هؤلاء المجرمين أعرضوا عن رحمة الله، وخرجوا من دائرة الرحمة الالهية الواسعة التي وسعت كل شيء، فلا ينالون هذه الرحمة بالضرورة.

وعليه فإن الله يمهلهم ليتمادوا في غيهم ويحققوا كل ما يطلبون من شر وفساد.

سئل ابو عبدالله الصادق(ع) عن الاستدراج، فقال: هو العبد يذنب الذنب، فيملى له، ويجدَّد له هذه النعم، فيلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم[١٤].

وروي عن امير المؤمنين(ع): (ايها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين. انه من وسّع عليه في ذات يده ، فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفاً ومن ضيّق عليه في ذات يده، فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولا)[١٥].

والامام عليه السلام يشير هنا الى أمن وخوف في غير موضعهما.

اما الأمن فهو ان يتقلب الانسان في النعم، فيأخذه الغرور، ولا يحسب انه قد يكون ذلك استدراجاً له.. وهذا هو الأمن الخاطئ.

واما الخوف والقلق الخاطئ فهو ان يواجه الانسان ابتلاء فيقلق فيها ويخاف منها ولا ينظر اليها من منظار الاختبار الالهي لعبده، فيخسر وعي باب من ابواب رحمة الله تعالى بعباده، وهو الابتلاء والاختبار.

وهذا هو النحو الثاني من العقوبات الالهية ، التي يشير اليها الامام زين العابدين عليه السلام في دعاء الاسحار حيث يقول(ع): (ولا تمكرني في حيلتك).

فإنه، وان كان ظاهره النعمة، فان باطنه النقمة والعذاب، وعلى العبد ان يعوذ بالله تعالى ان يمكره في حيلته، ويستدرجه الى معصيته ومخالفته.

٣- عقوبة التنكيل والاستئصال

نقرأ في دعاء الافتتاح: (وأيقنت انك انت ارحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، واعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة).

فنتساءل لماذا كان الله تعالى (ارحم الراحمين) في موضع العفو والرحمة، وكان (أشد المعاقبين) في موضع النكال والنقمة؟ وكان يناسب رحمته ان يكون ارحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأخفّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

والجواب: ان الله تعالى مطلق في كل شيء شديد في كل شيء، وهو فعّال لما يريد... فإذا اراد الرحمة كان شديد الرحمة، ارحم الراحمين، واذا غضب وسخط على عبده - معاذ الله - كان اشد المعاقبين ورحمته اوسع من غضبه.

ولذلك فلا يأمن العبد عقاب الله، لانه اشد المعاقبين، ولا يخيب عن رحمة الله، لانه ارحم الراحمين ويتردد العبد بين رجاء الرحمة ومخافة العقوبة.. بين الخوف والرجاء، وهذه هي العلاقة الصحيحة بالله تعالى.

والاستدراج في الدنيا، والعقوبة في الآخرة كل منهما حاصل عن غضب الله تعالى، إلا أن عذاب الاستدراج في الدنيا وعذاب التنكيل في الدنيا والاخرة. وهذا

هو الفرق الاول بين العذابين.

عقوبة الاستدراج ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وعقوبة التنكيل ظاهرها العذاب وباطنها العذاب وهذا هو الفرق الاول بين عقوبة الاستدراج وعقوبة التنكيل.

والفرق الثاني بينهما ان عقوبة الاستدراج في الدنيا وعقوبة التنكيل في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى في تعميم عقوبة التنكيل للدنيا والآخرة : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾(١٦).

ويقول تعالى فيما نزل على قوم لوط من العقوبة والعذاب في الدنيا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١٧).

ويقول تعالى عن العقوبة التي انزلها بابرهة وجيشه من اصحاب الفيل:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (١٨).

ويقول تعالى عن العذاب الذي أُنزل على ثمود: ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (١٩).

والفرق بين عقوبة التنكيل والعقوبات التأديبية التي تنزل على المذنبين من المؤمنين في الدنيا، ان الاولى عذاب استئصال كما نزل بقوم لوط وثمود

واصحاب الفيل والسبت وقوم صالح، والثانية عذاب تنبيه وتذكير واذا نزل عذاب التنكيل والاستئصال بقوم، فلا ينفعهم ايمانهم ودعاؤهم لرد العذاب الا ما كان من قوم يونس.. فقد نزل بهم العذاب، ولكنهم لما لجأوا الى الله تعالى بالدعاء والتضرع والتوبة، دفع الله عنهم العذاب.

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[٢٠].

وهذه العقوبة كالعقوبة السابقة لاتنزل بقوم الا عندما يعرضوا عن رحمة الله إعراضا كاملا، وعندئذ يخرجوا عن دائرة رحمة الله.

وحسبك في هذه العقوبة انها تنزل بالانسان عن غضب الله وسخطه، نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

وعن هذه العقوبة ومقارنتها بما يبتلي الله تعالى عباده في الدنيا من انواع الابتلاء... يقول امير المؤمنين (ع) كما في رواية كميل بن زياد رحمه الله في دعاء كميل:

(وانت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على اهلها.. على ان ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدتّه، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدته، ويدوم مقامه، ولا يخفف عن اهله، لانه لا يكون الا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا مالا تقوم له السماوات والارض، يا سيدي ، فكيف لي ، وانا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين).

ثم يذكر الامام (ع) ان اعظم مافي هذه العقوبة هو شعور العبد، وهو في نار جهنم، ان الله ابعده عنه، وحكم بفراقه له، وانه تعالى لا يحب جواره وقربه، وانه يمقته وغاضب عليه، ان هذا الاحساس لدى العبد، وهو يعذب في نار

جهنم أشد شيء في هذه العقوبة رغم كل قساوة وضراوة نار جهنم وعذابها، فاستمع إليه عليه السلام، كيف يصور حالة العبد في نار جهنم، وهو يشعر بأن الله غاضب ساخط عليه، مفارق له، وحاشره مع اعدائه في مكان واحد.

(فلئن صيرتني للعقوبات مع اعدائك وجمعت بيني وبين أهل بلائك وفرقت بيني وبين احبائك واوليائك فهبني يا الهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف اصبر عن النظر الى كرامتك، ام كيف اسكن في النار ورجائي عفوك..).

ثم يقسم عليه السلام... ان لو تركه الله مع اعدائه في نار جهنم واقصاه عن قربه وعن احبائه... ان يعلن في وسط نار جهنم، ومن بين اعدائه ومناوئيه - لو تركه ناطقا - عن حبه له، وعظم رجائه به، وامله في رحمته ويضج اليه في وسط نار جهنم ضجيج الآملين، ويطلبه بصراخه وعويله، ويبكي لفقده وفراقه، بكاء الفاقدين... استمع اليه عليه السلام .

(فبعزتك يا سيدي ومولاي اقسم صادقا لئن تركتني ناطقا لأضجنّ اليك بين اهلها ضجيج الاملين، ولأصرخنّ اليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأُناديـنّك: اين كنت يا ولي المؤمنين يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين.

العلاقة بين الذنب والعقوبة

يبقى ان نشير الى العلاقة بين العمل والجزاء، في سياق الحديث عن الذنوب والعقوبات... وهذا البحث من رقائق الثقافة القرآنية.

قد تكون العلاقة بين العمل والجزاء من نوع العلاقات التشريعية كالعلاقة بين جريمة شرب الخمر والجلد، والعقوبات الواردة في التشريع كلها من هذا

القبيل... وهذه العقوبات تخص الحياة الدنيا.

النوع الاخر من العقوبات؛ العقوبات التي تقع موقع النتيجة والجزاء الطبيعي من الجريمة. والعلاقة بينهما من نوع العلاقة بين الاسباب والمسببات كالعلاقة بين الظلم وما يصيب الظالم من سوء العاقبة... فإن الظالمين يلاقون في هذه الدنيا نتائج اعمالهم قبل الآخرة... وقد عاصرنا كثيراً من الظالمين اخذهم الله اخذ عزيز مقتدر، ولقوا في هذه الدنيا نتائج عدوانهم وظلمهم... يقول تعالى: ﴿ ولا يَحيقُ المَكرُ السيّئُ إلاّ بأهلِه﴾[٢١]. ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[٢٢]. ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[٢٣].

وهذه العقوبات تعم الدنيا والآخرة، وهي بحكم نتائج اعمال الانسان في سنن الله تعالى.

والنوع الثالث من العقوبات؛ عقوبة المجرمين بجرائمهم.. فان لاعمال الانسان ظاهرا في هذه الدنيا، وباطنا في الآخرة، فإذا انتقل الانسان من الدنيا الى الآخرة وجد اعماله امامه قد سبقته إليها، غير أن هذه الاعمال أُحضرت له هذه المرة بصورة اخرى غير التي كان يعرفها في الدنيا، وهي باطن الاعمال وجوهرها.

فإن لاعمال الانسان صورة ظاهرة في الدنيا، وحالة باطنة هي جوهر العمل وروحه، والذي يحضر للانسان من عمله في الاخرة هو باطن العمل وليس ظاهره.

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٢٤].

ويقول تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٢٥].

ويقول تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٢٦).

وهذه الآيات وامثالها في القرآن ظاهرة في ان اعمال الانسان نفسها تنتقل الى الآخرة(٢٧) وان الانسان عندما يحشر يواجه عمله الذي قدمه بين يديه الى الله ﴿يومَ تَجدُ كُلُّ نفس ما عَمِلت من خير مُحضَراً﴾ والذي يحضر للانسان في الآخرة هو عمله من خير او شر.

غير ان الذي يعرفه الانسان من عمله في الدنيا هو ظاهر عمله. ولأعمال الانسان ظاهر يعرفه في الدنيا، وباطن يلقاه في الآخرة، وهو يختلف اختلافا نوعياً عما يعرفه من ظاهر عمله في الدنيا.

فالذي يأكل أموال اليتامى ظلما، لا يعرف من عمله الا هذه الصورة التي ترغبه وتشهيه في هذا الاثم، وهو التمتع بأموال الايتام... ولهذا الاثم صورة اخرى، هي باطن العمل، يظهر له في الاخرة، وتلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢٨).

وهذه النار التي يلقاها الانسان في الاخرة هي باطن هذا الاثم، ولو كان يشهد باطن عمله في الدنيا لم يرتكبه قط.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٢٩).

ان للغيبة ظاهراً وباطنا... اما الظاهر منها فهو الذي يُشهّي الناس ويُرغّبهم فيها، واما باطنها فهو اكل لحوم الاموات. وفي الحياة الدنيا لا يرى الناس الا هذا الظاهر الذي يشهيهم في الغيبة، ولو كانوا يرون باطن الغيبة، ويعرفون انهم يلوكون بالغيبة لحوم اخوانهم لاشمأزوا ونفروا من الغيبة.

إنَّ ما يلقاه المجرمون في نار جهنم من عذاب وعسير إنما هي أعمالهم تجسدت لهم في الآخرة بهذه الصورة.. وكذلك العكس ما يلقاه المؤمنون اصحاب التقوى والعمل الصالح من نعيم ورحمة في الجنة هو اعمالهم الصالحة تلقوها في الآخرة بهذه الصورة الجديدة التي لم يألفوها من قبل في الدنيا.

ان عمل الانسان لا ينعدم، من خير او شر، فإذا مات الانسان واجه عمله، بعينه، غير انه في الاخرة يظهر له بشكل آخر غير ما كان يعرفه في الدنيا.

العفو والرحمة

ولا يسعنا الحديث عن العقوبة والعذاب الالهي الا ان نشفعه بالحديث عن عفوه ورحمته تعالى، فإن رحمته وسعت كل شيء، مهما بلغ ذنب العبد.

روى الكراجكي في (الكنز) عن عطاء بن يسار عن امير المؤمنين(ع).

قال: يوقف العبد بين يدى الله تعالى، فيقول: قيسوا (قارنوا) بين نعمي عليه وبين عمله.

فيستغرق النعم العمل.

فيقولون قد استغرق النعم العمل.

فيقول هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه. فإن استوى العملان أذهب الله الشر بالخير، وأدخله الجنة، وان كان له فضل (أي كانت حسناته تغلب سيئاته) اعطاه الله بفضله.

وان كان عليه فضل (أي كانت سيئاته تغلب حسناته) وهو من اهل التقوى، ولم يشرك بالله تعالى، واتقى الشرك فهو من اهل المغفرة، يغفر الله له برحمته ان شاء، ويتفضل عليه بعفوه) [٣٠].

١ـ والحديث يتناول اولاً الابعاد الثلاثة للحساب. وهذه هي القاعدة، فيقاس

عمل العبد لله تعالى: بنعم الله تعالى على عبده.

فان فضل عمل العبد عن فضل الله عليه، يقاس الفضل (من حسناته) بذنوبه وسيآته، ويغطّيها، وان استغرقت نعم الله عمل العبد، كما هو الواقع بقيت ذنوبه وسيآته مكشوفة، لا يغطّيها شيء.

٢- وحيث تستغرق النعم الحسنات، فلا محالة تبقى السيئات مكشوفة، لا يغطيها شيء، فيأمر الله تعالى ملائكته بإلغاء المقارنة الاولى، والحساب على المقارنة الثانية.

فيقول: (هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه) وهناك المقارنة تكون بين حسناته وسيآته.

وهي لا تخلو من ثلاث حالات.

فإما ان تفضل حسناته على سيآته، او تتساوى سيآته وحسناته او تفضل سيآته على حسناته.

فإن تساوت حسناته وسيآته، أذهب الله الخير بالشر، كما في الرواية.

وإن فضلت حسناته على سيآته وكان له فضل اعطاه الله بفضله.

وان فضلت سيآته على حسناته (وان كان عليه فضل) وكان صاحبها من اهل التقوى، ويتقي الشرك بالله غفر الله له برحمته.

الهوامش:

1 - الكافي ١٠٦/٨.
2 -الانعام/ ١٦.
3 - بحار الانوار ٢١٧/٥ ، ح ٩.
4 - بحار الانوار ٦، ٥٧، ح ٨ .
5 - مكارم الاخلاق/ ١٩٥.
6 - نفس المصدر ح ٩.
7 - بحار الانوار ٦/ ١٥٧، ح ٤.
8 - بحار الانوار ١٥٥/٦، ح ١٠.
9 - لئالي الاخبار، ص ٤٥٨.
10 - بحار الانوار ١٦٠/٦، ح ٢٦.
11 - بحار الانوار ١٥٧/٦ ، ح ١٥.
12 -الكافي ٢٧٢/٢.
13 - الاعراف/ ١٨٢ - ١٨٣.
14 - بحار الانوار، ٢١٨/٥، ح ١١.
15 - نهج البلاغة ، تحقيق صبحي الصالح، ص ٥٣٦، الكلمة ٣٥٨ من الكلمات القصار.
16 - فصلت/ ١٥ - ١٦.
17 - هود / ٨٢ - ٨٣ .
18 - سورة الفيل.
19 - الذاريات / ٤٤.
20 - يونس/ ٩٨.
21 - فاطر/ ٤٣.
22 - الانعام/ ١٠.
23 -النحل/ ٣٤.
24 - ال عمران/ ٣٠.
25 - الكهف/ ٤٩.
26 - الزلزلة / ٧ - ٨ .
27 - راجع في توضيح وتفصيل هذا البحث الكتاب القيم (العدل الالهي) للشهيد الشيخ مرتضى المطهري فصل (عذاب الآخرة).
28 - النساء/ ١٠.
29 - الحجرات/ ١٣.
30 - بحار الانوار ٣٢٤/٥ - ٣٣٥.